معالم الموجة التشكيكية المعاصرة وسماتها وطبيعة التأثر بها

حين يستخرج الأطباء لقاحاً للمناعة من داء معين، فإن هذا الاستخراج مسبوق بخطوات في تحديد طبيعة الداء وحقيقته وأسبابه، وهكذا في الأمور الفكرية وفي الظواهر الاجتماعية، لا يحسن علاج أي مشكلة ما لم يكن المعالج على دراية بحقيقتها وطبيعتها وأسبابها، ومع أن القصد الأكبر في هذا الكتاب: بيان منهجية الوقاية والمعالجة من الشبهات الفكرية، وعرض أبرز التساؤلات والإشكالات والإجابة عنها، إلا أنه يحسن في البداية وصف الموجة التشكيكية المعاصرة، وبيان سِماتها ثم أسباب التأثر السلبي بها، وبعد ذلك نَلِج إلى المقصود بإذن الله:

معالم الموجة التشكيكة المعاصرة وسماتها:

أولاً: هذه الموجة في غالبها هدمية لا بنائية، فوضوية لا منهجيّة؛ تثير الإشكالات، وتُبرِز الاعتراضات، ثم لا تقدم رؤية أو فكرة بديلة متماسكة، ويظهر هذا في صور واقعية متعددة:

منها: أن المتابع للطرح الإلحادي يجد في كثير منه البعدَ عن تقرير الفكرة الإلحادية الأساسية، وهي نفي وجود الخالق، وإنما تجد أكثر اهتمامهم بنقد الدين ـ وخاصة الإسلام ـ، مع وجود الثغرات الكبرى في صميم الفكرة الإلحادية ذاتها، ولكنهم يُعرضون عنها، ولا ينشغلون بالإجابة عن الأسئلة الحقيقية التي تواجه اعتقادهم، وإنما ترتفع أصواتهم استهزاء بحديث بول البعير، وخبر سِنّ عائشة عند الزواج، وإذا ارتقوا قليلاً تحدثوا عن عقوبة الردة، وحد الرجم، وهذا يُبرز سمة الفوضى والهدم، في مقابل الانتظام والبناء.

وتبرز في ذهني الآن صورة ريتشارد دوكنز ـ كبير الـمُلحدين ـ وهو يسأل «مهدي حسن» في لقاء عرض على قناة الجزيرة، ـ وهو مرفوع على الشبكة ـ: إنْ كان يؤمن بأن محمداً ﷺ قد صعد إلى السماء بفرس له أجنحة؟ وأثارت طريقة عرضه التهكمية للسؤال إعجاب جمهوره فصفقوا له[1]، بينما هو نفسه حين سئل في برنامج آخر عن شيء متعلق بأصل فكرته الإلحادية، وهو أصل نشأة الحياة كان رده مخيباً لأمل الملحد ومُظهراً ضعفه، فقد ذكر أنه ربما في وقت ما، وفي مكان ما في الكون، تطورت حضارة بالطريقة الداروينية

(١) على هذا الرابط: https: //www.youtube.com/watch?v=qk8Jmtjnz8I

على الأرجح، وصممت شكلاً من أشكال الحياة، وربما بذروه في كوننا![1].

وكذلك حين تحدث مع الفيزيائي الملحد ستيفن واينبرج عن تفسير نشأة الكون على قوانين دقيقة، عرض عليه احتمال أن يكون ذلك بسبب وجود أكوان متعددة نشأ كوننا عنها، فرد عليه واينبرج بأن ذلك يتطلب أن يكون عدد الأكون الأخرى ١٠ مرفوعاً إلى ١٢٠، ثم قال: وفي الحقيقة فهذا شيء مُزعج[2].

وهكذا ترى أن القضايا الكبرى عند أصحاب الفكر الإلحادي مشوشة، غير قائمة على بنيان، وبدل أن يقيموا الدلائل على صحة فكرتهم، صاروا يتوجهون إلى الأديان بالطعن والهدم.

ومن الصور أيضاً للطرح الهدمي غير المنهجي: مشروع د. عدنان إبراهيم، وهو من أكثر المشاريع تأثيراً في السنوات الأخيرة، عبر المقاطع التي تنشر خطبه وآراءه، وهو ـ وإن استفاد منه بعض الناس إيمانيّاً أو معرفيّاً ـ إلا أنه لا يقدم رؤية معرفية بنائية متماسكة بقدر الاضطراب المنهجي الذي

---

(١) يوجد روابط كثيرة لهذا الكلام منها:
https: //www.youtube.com/watch?v=EMEZLEOCO08

(٢) يوجد روابط كثيرة للقاء، منها هذا:
https: //www.youtube.com/watch?v=deM1zfy0v0g

يمارسه ومن ثم ينتقل إلى جمهوره، فالمتابع له لا يخرج بموقف واضح تجاه عدد من القضايا الشرعية المهمة التي أكثر الحديث عنها؛ كالموقف من السُّنَّة، فتارة يجد منه تعظيماً لأصح الكتب في هذا المجال: صحيح البخاري، إذا كان ذلك في سياق استدلاله بحديث منه على قضية يؤيدها، ثم يجده في مقام آخر، وفي حديث من الصحيح نفسه، يَنْزِل بالكتاب وصاحبه إلى الحضيض إذا كان مما لا يؤيده، ويستعمل في ذلك ألفاظاً قاسية للتعبير عن الاستنكار والاستبشاع والاستفظاع، حتى أنه ليُخيّل لك أن البخاري إنما كان بائع حلوى، أو سائس خيول، لا عالماً جهبذاً قل في التاريخ نظيره.

وكثيراً ما يكتسب المتابع له جُرأة على الثوابت والـمُسلّمات دون مفاتيح منهجية، ودون اعتبارات فقه الخلاف وأدبه، فيتعامل أحدهم مع النصوص بناء على بوابته المعرفية والفكرية ـ التي يظنها العقلَ الصريح ـ؛ فيُدخل من النصوص ما ناسب فهمه، ويرد منها ما لا يناسبه.

ولم يكن دافعي إلى هذا الكلام محاربة التجديد، ولا مُنطلقي فيه الرضى بالواقع العلمي الذي نعيشه، وإنما هو رفض التجديد الذي ينبني على الاضطراب المنهجي، وعلى الثورة الهدمية النقضية لا على الرؤية البنائية، أو النقد المنهجي العادل، إذْ إنَّ هذه الفوضى لن تكون مخرجاً لما

نحن فيه من تأخر في مجالات العلم والتفكير والمعرفة، بل إنها تكرس هذا التأخر وتزيده تعقيداً.

وقد وقفت على حالات ترك أصحابها الإسلام، مصرحين بأن أول خطوة في انحدارهم ذلك كانت: متابعة عدنان إبراهيم، ثم الانحدار إلى «شحرور»[1]، ثم السقوط إلى المذهب الربوبي أو الإلحاد؛ ولا أظن أن هذه النتيجة هي ما نسعى إليه من تجديد!.

ثانياً: هذه الموجة مُحمَّلة بالأسئلة المفتوحة دون حدود؛ ولا يوجد سؤال يُمكن أن يُستبعد منها، سواء ما كان منها متعلقاً بالله سبحانه، أو بأفعاله، أو بالتشريعات الإسلامية، أو بالأنبياء، أو بالقضايا الفلسفية في أزلية الكون أو حدوثه، ونحو ذلك، وهذا يستدعي استعداداً نفسيّاً ومعرفيّاً من المتخصصين للتعامل مع هذه الأسئلة.

ثالثاً: تحمل الموجة التشكيكة المعاصرة شعارات عامة ذات بريق وجاذبية، ولكنها غير محددة المعالم، وغير منسوجة نسجاً منهجيّاً علميّاً يقي صاحبه من الفوضى أو التناقض، ومن أبرز هذه الشعارات: (تحرير العقل، نقد الموروث، رفض الوصاية، الحرية) ونحوها، وهذه الشعارات ليست باطلاً محضاً، وإنما تحتاج إلى بيان

---

(١) أحد رموز منكري السُّنَّة ومحرفي القرآن.

الإجمال الذي فيها، وفرز المقاصد الخاطئة التي يدعو إليها المشككون في الإسلام وثوابته عن طريقها، وتمييز المعاني الصحيحة عن تلكم المقاصد الفاسدة؛ حتى لا تتحكم الأهواء في تطبيقها على الواقع، فعلى سبيل المثال هناك من يُنكر السُّنَّة كلها تحت دعوى (نقد الموروث)! وهذا استعمال فاسد نتيجة الشعارات الفضفاضة والتحكم في تنزيلها.

رابعاً: التأثر بهذه الموجة في مجتمعنا المحلي يأخذ حالة بين الخفاء والعلن، وهي إلى الخفاء أقرب(١)، ولذلك فإن قياس حجم الشريحة المتأثرة بهذه الموجة فيه صعوبة، وفي نفس الوقت فإن حالة الخفاء هذه تعتبر أمراً مقلقاً للآباء والأمهات والمربين.

خامساً: الميدان الأكبر لبث شبهات هذه الموجة، ولاستقبالها والتأثر بها هو شبكات التواصل الاجتماعي ـ حتى هذه اللحظة ـ، وهذا يعطي الموجة بعداً توسعياً كبيراً غير خاضع للموانع الجَمعيّة المفترضة، وأقصد بالموانع الجمعية المفترضة (المسجد، المدرسة، الأسرة)، فيمكن أن يتأثر بهذه الموجة من يرتاد المساجد، ويمكن أن يتأثر بها من عاش في كنف أبوين صالحين، وقد لاحظت ذلك من خلال

---

(١) على الأقل إلى وقت كتابة هذه الأسطر مع إمكانية تغير الحالة بحسب تغير الظروف والمعطيات والمؤثرات.

نقاش عدد من المتأثرين بها، منهم امرأة اتصلت تذكر أنها تَكْفُر بالإسلام صراحة وبدأت تناقش بعض القضايا، ثم قطعت اتصالها فجأة، وبعد أن أكملت اعتذرت بأن أباها (مطوّع)[1] فخشِيَت أن يسمع كلامها فقطعت الاتصال!.

سادساً: خطورة هذه الموجة أنها موجهة ضدِّ أصلِ الإسلام وثوابت الشريعة المتفق عليها، بخلاف ما لو كانت الإشكالات موجهة ضد إحدى المدارس الشرعية ـ مثلاً ـ، أو ضد عالم من علماء المسلمين، دون المساس بأصول الإسلام وثوابته لكان الأمر أهون بكثير مما هو عليه الان، ووجه الخطورة يظهر إن نظرنا إلى المتأثرين بها؛ فحين يفقد أحدهم أصل الإسلام فذلك كفر يؤدي إلى النار، كما أنّ خسارة الثوابت الشرعية تضييعٌ للهوية وانحرافٌ للبوصلة وانحلالٌ من التكاليف، بل إنّ إنكار بعض الثوابت كفر، وكل هذا يجعل الأمر في مستوى لا يحتمل التغافل والتجاهل والتهوين.

وسأشرح في الموضوع السادس والسابع من هذا الكتاب أبرز الشبهات التي تتضمنها هذه الموجة؛ كي ندرك خطورتها بصورة تفصيليّة.

سابعاً: مما يزيد من خطورة هذه الموجة، أن أغلب

(١) كلمة مرادفة لـ(متدين).

المتأثرين بها هم شريحة الشباب ذكوراً وإناثاً؛ ومعنى ذلك أن تكامل ظهور الآثار السلبية سيكون في المستقبل القريب حين يصل هؤلاء الشباب إلى مرحلة العطاء والعمل والتربية والإرشاد ـ ما لم يحصل تدارك واعٍ على المستوى الذي تتطلبه المرحلة ـ.

ثامناً: ينقسم المتأثرون بموجة الشبهات المعاصرة إلى قسمين:

الأول: العابثون الفوضويون الباحثون عن أهوائهم الشخصية في ثنايا هذه الشبهات، وهم كثير.

الثاني: الذين تأثروا بالشبهات تأثراً فكريّاً حقيقيّاً أدى إلى تبنّيهم لأفكار جديدة فيها مخالفات شرعية.

وهذا يدفعنا إلى عدم تعميم الأحكام، وإلى الكف عن إطلاق التهم العامة، وعدم اختزال الظاهرة في صورة مجتزأة، وإلى البحث عن سبل متنوعة للعلاج بما يتناسب مع اختلاف الحالات.

تاسعاً: تختلف مرادات مثيري موجة الشبهات المعاصرة، فبعضهم يقصد صرف الناس عن الإسلام، وإخراجهم منه، بل وعن الأديان كلها، وهذا يمثله الملحدون الجدد، والربوبيون، والمستفيدون سياسيّاً من ضياع قوة المسلمين وتفتت كيانهم.

والبعض الآخر من مثيري الشبهات لا يريد هدم الإسلام ولا تقويض بنيانه، بل ربما يثيرها بمقصد حسن في نفسه، ألا وهو تحسين صورة الإسلام، وإظهاره بما يوافق النَّفَس العصري، وقد يؤدي به تحقيق هذا الغرض إلى إنكار بعض الثوابت الشرعية، أو تأويلها بما يخفف من إثارة حفيظة غير المسلمين. وأقصد **بالثوابت الشرعية**: الأحكام والأخبار التي اتفق أهل السُّنَّة والجماعة على الأخذ بها، مثل اعتبار السُّنَّة مصدراً تشريعيّاً للأحكام والأخبار الدينية، ومثل الحدود الشرعية.

عاشراً: هذه الموجة تتشكل من مجموعة من الاعتراضات على وجود الله وكماله وعلى النبوة والشريعة، وفي الغالب تجد أن الأسئلة ذاتها تتكرر على ألسنة المتأثرين بها على اختلاف أعمارهم وبلدانهم، ولم يكن ذلك نتيجة تفكير واستنتاج عقلي اكتشفوا به هذه الأسئلة والاعتراضات، وإنما لتداول المعلومات في فضاء الشبكة التي قرَّبت البعيد وجعلت العالم مجتمعاً على طاولة واحدة، وسأذكر في ثنايا الكتاب طائفة من أبرز هذه الأسئلة والاعتراضات التي تتضمَّنها الموجة، وهناك كتب متعددة اعتنت ببيان أبرز الإشكالات بوجه عام أو في أبواب معينة، منها موسوعة بيان الإسلام، وكتاب تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى الطاعنين، ومن أفضلها في نظري رسالة الدكتوراه

لسلطان العميري بعنوان «ظاهرة نقد الدين في الفلسفة الحديثة».

وأختم السمات بالإشارة إلى مرجع يفيد في وصف الإلحاد الجديد ألا وهو كتاب: ميليشيا الإلحاد لعبد الله العجيري.

الخير المنطوي ضمن موجة الشبهات الفكرية المعاصرة

لا أحب أن أكون متشائماً مهما كان الواقع مليئاً بالتحديات، والله سبحانه لا يخلق شرّاً محضاً، وحين نتَلَمّس جوانب هذه الموجة ونكشف خباياها نتفاءل بخير يمكن أن يحصل بسببها! ولكن حصول هذا الخير مشروطٌ بأمر مهم سأذكره بعد بيان وجوه هذا الخير:

أولاً: قد تؤدي هذه الموجة إلى ردة فعل عكسية عند كثير ممن تأثر بها أو من يشعر بخطورتها، وردة الفعل هذه هي (إعادة أخذ الإسلام بيقين لا بتقليد)، وفي الحقيقة فإنه لا شيء أنفع للإسلام من أن يكون أهله على يقين تام بصحته وعلى تذوق مستمر لحلاوته. وربما يكون في طريق هذه النتيجة الجميلة مرحلةُ فتنة يسقط فيها أقوام، وينهض آخرون.

وإذا استظهرنا حالة إيمان الصحابة رضي الله عنهم فإنهم قبْل إسلامهم كانوا قد ذاقوا مرارة الشرك والكفر والحيرة والغفلة وكانوا في جاهلية، ثم أذِن الله بهدايتهم حين أشرق نور الإسلام ببعثة محمد ﷺ، فتطلبوا حقيقة الدعوة فوجدوا أنها

نبوة صادقة، وصراط مستقيم، ونور مبين، فتمسكوا به أشد التمسّك، وثبتوا عليه أعظم الثبات مع شدة الأذى، ثم أوصلوا للبشرية هذا النور، وصبروا على الشدائد، وتجاوزوا الصعاب، وكان ذلك كله من ثمرات أخذهم الإسلام بيقين لا بتقليد.

ثانياً: بث روح البحث والحوار والمناظرة.

ثالثاً: استنهاض الهمم الميّتة.

إن كثيراً من حَمَلة العلم الشرعي لم يحققوا الآمال المرجوة منهم في مجال بث العلم، والدفاع عن الإسلام، والدعوة إليه، غير أنّ مما يرجى تحققه فيهم حين يرون رياح الشك تعصف من حولهم أن تنبعث فيهم جذوة الغيرة على الإسلام، فتستنهض منهم العزائم والهمم، وهذا الأمر ـ وحده ـ لو تحقق فإنه خير كبير.

رابعاً: مراجعة الدعاة أنفسهم من جهة أساليبهم في تبليغ الدعوة.

وسيأتي ـ بإذن الله ـ شيء من التفصيل في ذلك عند الحديث عن: سمات الخطاب الدعوي المؤثر في الساحة الفكرية المعاصرة.

وما مضى ذكره من جوانب الخير المنطوي ضمن الموجه التشكيكية المعاصرة مشروط بالاجتهاد من حاملي

العلم والإيمان في نشر براهين الحق بأفضل طريق، وأمَّا إن أعرضوا عن هذا التحدي، أو هوَّنوا من شأنه ولم يقوموا بما تستحقه هذه الموجة من معالجة واعية متميزة، فأخشى أن نستيقظ جميعاً على كارثة تبقى آثارها السيئة زمناً طويلاً.

أسباب التأثر السلبي
بالشبهات الفكرية المعاصرة

يميل كثير من الناس عند تحليلهم لمشكلة أو ظاهرة اجتماعية إلى اختزال أسبابها، والحكمِ عليها بناءً على ما يمليه طرف الذهن وحديث المجالس، وحين يُطرح سؤال: لماذا يلحد بعض شبابنا؟ أو ينكرون السُّنَّة؟ تجد البعض يختصر أسباب المشكلة في سبب واحد أو اثنين، وهذا غير صحيح، فهي مشكلة معقدة مبنية على مجموعة من الأسباب متداخلة فيما بينها، ولذا؛ فقد حاولت جمْعَ ما استبان لي ـ بعد التأمل ـ من الأسباب لهذه المشكلة، ثم ضممت النظير إلى نظيره منها، وصنفتُها تحت أنواعٍ من المؤثرات يندرج تحت كل نوع عدد من الأسباب:

النوع الأول: مؤثرات خارجية، وسأذكر منها خمسة مؤثرات:

١ ـ شبكات التواصل الاجتماعي:

لا يخفى على أحد ما في شبكات التواصل من جوانب الخير والمعرفة والتكافل، غير أنها في الوقت ذاته تعد أكبر

عاملٍ في تسريع تداول الشبهات والإشكالات، وساهمت في بناء الجسور بين مصادر الإشكالات القديمة وبين الشريحة القابلة للتأثر، كما أنها يسّرت لأصحاب الشبهات بث شبهاتهم دون إجراءات وتعقيدات، ومنحت لطالبي الشهرة فرصة لأن يبحثوا عنها في المخالَفة والشذوذ، على قاعدة: (خالِفْ تُعرَف)، وكونهُا توصِل الشبهات إلى المتابعين دون استئذان فهذا مكمن آخر لخطرها.

٢ ـ الأفلام والروايات:

قلَّ أن تجد في الإعلام المرئي أو الكتب المقروءة ما يتمتع بجاذبية كبيرة للشباب من الجنسين مثل الأفلام والروايات، مما يوسع من الشريحة المتأثرة بها، وتكمن إشكالية كثيرٍ منها في التأثير غير المباشر، وذلك عن طريق نقل الثقافة الأجنبية بما فيها من صواب وخطأ، وخير وشر، دون تمييز لما يتعارض منها مع قيم الإسلام.

٣ ـ التواصل والاحتكاك المباشر بالثقافات الأجنبية عن طريق الدراسة ونحوها:

والإشكال الأبرز هنا أن الشاب المسلم يجلس على مقعد التعلم والتلقي من معلمين غير مسلمين، وفيهم من هو مهتم بنشر بعض الأفكار الإلحادية، وقد تأثر بعض الطلاب بذلك حتى من أصحاب الدراسات العليا، ولو كان الشاب

قبل ذهابه إلى الدراسة هناك على مستوىً عالٍ من الإيمان واليقين، وكان يملك قدراً لا بأس به من التأصيل الشرعي والأدوات المعرفية التي يقيّم بها المعلومات الجديدة ويخضعها للنقد العلمي، لكان الأمر أهون من ذهابه وهو عريٌّ عن ذلك كله.

٤ ـ انتشار الشهوات المحرمة:

نحن نعيش مرحلة استثنائية مخيفة في انفجار وسائل الإغراء الجنسي، فهل هناك علاقة بين انتشار الشهوات المحرمة وبين قابلية التأثر بالشبهات؟

الإشكال في طبيعة الشهوات المعاصرة أنها متشعبة ومتسلسلة، ويدعو أوَّلُها إلى آخرها، ويُمكن أن تستقطب كل اهتمام الشاب وعواطفه وتفكيره إليها، وهذا كله قد يؤدي ببعض المتعلقين بها إلى أن يستثقلوا التكاليف الشرعية، ثم إلى أن يبحثوا عن قطع ما ينغص عليهم كمال الاستمتاع بهذه الشهوات وهو تأنيب الضمير من ممارسة الحرام، ومن طُرُق ذلك الخروج من الدين أو إنكار الجزاء والحساب.

ربما لا يكون التسلسل السابق هو الأكثر من ناحية الواقع، ولكنه خطير وغير بعيد.

وهناك وجه آخر: ألا وهو أن الإكثار من الذنوب، وعدم التوبة منها يؤدي إلى تكوّن (الرّان) الذي إذا تكاثر على

القلب حَجَبَه عن البصر بالحق، كما قال الله سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: ١٤]، وإذا كثرت الحواجب على القلب فإن نور الإيمان يخفت، فيصبح قابلاً للتأثر بأدنى شبهة أو تشكيك، وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلوَ قلبه، وهو الران الذي ذكر الله:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين: ١٤]». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح(١).

وهذه المعاني الغيبية وأمثالها مما ورد في الشرع يجب ألا نغفل عنها في تحليل أي مشكلة متعلقة بالبعد عن الدين.

٥ ـ التقدم المادي للعالم الغربي وتأثير الثقافة الغربية:

الكاتبة الألمانية الشهيرة زيجريد هونكه صاحبة كتاب «شمس الله تشرق على الغرب» الذي صدر عام ١٩٦٠م ميلادي، كتبت أيضاً: (الله ليس كذلك) وهو كتاب تدافع فيه عن المسلمين والحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، وقد نَقَلَتْ فيه نصّاً طريفاً ومهماً في الوقت ذاته، يتحدث عن موقف مشابه تماماً لما يعيشه كثير من المسلمين من انبهار

(١) سنن الترمذي (٣٣٣٤).

بالحضارة الغربية اليوم، ولكن بصورة عكسية، فالمتحدث هو أسقف قرطبة (ألقاروا) وقت تفوق الحضارة الإسلامية، وقد راح يجأر بشكواه بكلمات مؤثرة تصور بلواه ـ على حد تعبير المؤلفة ـ[1]، فقال: «إن كثيرين من أبناء ديني يقرؤون أساطير العرب ويتدارسون كتابات المسلمين من الفلاسفة وعلماء الدين، ليس ليدحضوها وإنما ليتقنوا اللغة العربية، ويحسنوا التوسل بها حسب التعبير القويم والذوق السليم، وأين نقع اليوم على النصراني من غير المتخصصين الذي يقرأ التفاسير اللاتينية للإنجيل؟ بل من ذا يدرس منهم حتى الأناجيل الأربعة، والأنبياء ورسائل الرسل؟

واحسرتاه! إن الشبان النصارى جميعهم اليوم، الذين لمعوا وبذّوا أقرانهم بمواهبهم لا يعرفون سوى لغة العرب والأدب العربي، إنهم يتعمقون دراسة المراجع العربية باذلين في قراءتها ودراستها كل ما وسعهم من طاقة، منفقين المبالغ الطائلة في اقتناء الكتب العربية، ويذيعون جهراً في كل مكان أن ذلك الأدب العربي جدير بالإكبار والإعجاب! ولئن حاول أحد إقناعهم بالاحتجاج بكتب النصارى فإنهم يردون باستخفاف، ذاكرين أن تلك الكتب لا تحظى باهتمامهم!

وامصيبتاه! إن النصارى قد نسوا حتى لغتهم الأم، فلا

---

(١) الله ليس كذلك، ص٤٢، دار الشروق.

تكاد تجد اليوم واحداً في الألف يستطيع أن يدبَّج رسالة بسيطة باللاتينية السليمة، بينما العكس من ذلك لا تستطيع إحصاء عدد من يحسن منهم العربية تعبيراً وكتابة وتحبيراً، بل إن منهم من يقرضون الشعر بالعربية، حتى لقد حذقوه وبذّوا في ذلك العرب أنفسهم) انتهى.

لقد سبق أن ذكرتُ في المؤثر الثاني: أنّ الأفلامَ والروايات من وسائل تمرير القيم الغربية بطريقة غير مباشرة إلى مجتمعنا، وليس هذا مؤثراً قويّاً وحده ما لم يكن مصحوباً بانهزام حضاري داخل نفس الـمُسلِم.

لقد أطلق ابن خلدون في مقدمته قاعدة بلغت شهرتها الآفاق، ألا وهي تأثير الغالب على المغلوب، فقال: «ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل في سائر أحواله... حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير»[١] انتهى باختصار.

ومن الكتابات اللطيفة في هذا الباب كتاب «ينبوع الغواية الفكرية» لعبد الله العجيري، وقد قرر في مقدمة الكتاب أن كثيراً من الانحرافات الفكرية في هذا الزمان عائدة إلى مركب من أمرين:

---

(١) (١/٢٨٣).

(هيمنة النموذج الثقافي الأجنبي.

مع ضعف التسليم لله ورسوله ﷺ)[1].

ثم قال: «وإذا تأملت في كثير من (الموضات الفكرية) التي عصفت بالأمة المسلمة في تاريخها المعاصر. عرفت أثر هيمنة النماذج الثقافية في تشكيل التصورات والأفكار، وبه يمكنك تفسير كثير من محاولات أسلمة الأفكار الشرقية أو الغربية، ففي زمن هيمنة النموذج الاشتراكي تم تقديم القراءة الاشتراكية للإسلام، وفي زمن هيمنة القيم العسكرية تمت قراءة الإسلام قراءة عسكرية، وفي زمن هيمنة النموذج السياسي الديمقراطي تمت قراءة الإسلام قراءة ديمقراطية، فمن الطبيعي أن يتم قراءة الإسلام قراءة ليبرالية في زمن الهيمنة الليبرالية. ومع هذا الحضور الطاغي في المشهد العالمي للقيم الليبرالية تخلق مزاج ليبرالي عام، وأضحى هذا المزاج كقدر ضغط تتشكل من خلاله ـ بوعي أو بغير وعي ـ كثير من القناعات والتصورات بتبني هذه القيم أو بعضها، وقراءة النص الشرعية من ثَمَّ في ضوء تلك القيم والتصورات، في محاولة لإعادة ترتيب المشهد الإسلامي وفق القيم الليبرالية.

ومع أهمية تفكيك المفاهيم الليبرالية وبيان ما فيها من

---

(١) ينبوع الغواية (ص١٩).

إشكاليات وانحرافات وعدم تواؤم مع كثير من القيم الشرعية، فستظل هذه الجهود محدودة الأثر نتيجة استقواء هذه المفاهيم بالحضارة الغربية الطاغية» انتهى باختصار[1].

وسيأتي بإذن الله في القواعد الوقائية أنّ إعادة ترتيب الأولويات الكبرى في النظر الإنساني من الأمور المهمة في إبطال تأثير هذا السبب. ومن الكتابات المثرية أيضاً في هذا الموضوع، كتاب «سُلطة الثقافة الغالبة» لإبراهيم السكران.

النوع الثاني من المؤثرات: عوامل داخلية:

إن العوامل الخارجية التي تساهم في التأثر بالتشكيكات المعاصرة في الإسلام وثوابته، لا تعمل عملها الحقيقي إلا بوجود محل قابل في الشريحة المستهدفة؛ أي: وجود ثغرات وفجوات في الشريحة الإسلامية المتعرضة للمؤثرات الخارجية السابقة، وسأذكر منها **ستة مؤثرات** فقط[2]:

المؤثر الأول: ضعف اليقين:

لن أطيل كثيراً في التعليق على هذا المؤثر مع أنه من أهم المؤثرات؛ لأني سأتحدث عنه في القواعد الوقائية، غير

---

(١) ينبوع الغواية (ص٢٣).

(٢) في دورة كيفية التعامل مع الشبهات الفكرية المعاصرة أقدم تسعة مؤثرات داخلية، ولكني آثرت الاختصار هنا بُعداً عن الإملال.

أن الذي أريد أن أقوله هنا أو أثير به التساؤل في عقل القارئ الكريم النقطة التالية:

قضية مثل وجوب الصلاة على وقتها هي من القضايا المتفق على كونها أهم الفرائض العملية بين المسلمين، وهم متفقون كذلك على أن تأخيرها إلى أن يخرج وقتها من عظائم الذنوب، والسؤال هنا: ما تفسير التفريط المشاهد في أداء الصلاة على وقتها من عدد غير قليل من المسلمين؟

أزعم أنَّ ضعف اليقين هو السبب الأكبر في ذلك مع وجود أسباب أخرى أيضاً.

إنَّ كثيراً من المسلمين في عافية من الكفر والإلحاد مع ضعف يقينهم لأنهم لم يُبتَلوا بمن يُشككهم في دينهم، وأما لو تعرضوا لشبهة قوية في أصل الإسلام أو ثوابته فقد لا يصمد إيمانهم أمام ذلك، كما في هذا النص البديع لابن تيمية رحمه الله:

«فعامة الناس اذا أسلموا بعد كفر، أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله؛ فهم مسلمون، ومعهم إيمان مجمل، ولكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئاً فشيئاً، إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يَصِلُون لا إلى اليقين ولا إلى الجهاد، ولو شُكِّكوا لشكوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا،

وليسوا كفاراً ولا منافقين؛ بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال، وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق»(١).

المؤثر الثاني: المشاكل النفسية والضغوط الاجتماعية:

أذكر أكثر من حالة جرى بيني وبينها نقاش حول الإيمان بالله سبحانه، وكان سبب وجود الإشكال عند الطرف الآخر بعض الضغوط والابتلاءات التي لم يستطع التخلص منها، وكثيراً ما يكون الضغط النفسي الذي يعاني منه الإنسان سبباً في سخطه على قضاء الله وقدره، ومن ثم قد يجحد وجود الخالق سبحانه، أو يتهم عدله وحكمته، وهذا المؤثر بالطبع ليس خاصّاً بالعصر الحديث، فقد أخبر الله في كتابه الكريم عن أناس ينقلبون على وجوههم بعد عبادتهم إياه بسبب بلوى أصيب بها، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج: ١١] وقد فسّر ابن عباس هذه الآية كما في صحيح

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧٠).

البخاري فقال: «كان الرجل يقدم المدينة؛ فإن ولدت امرأتُه غلاماً، ونتجت خيله، قال: هذا صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله، قال هذا دين سوء!»[1]. وما أجمل تعليق الـمُفسر الـمُتقِن، الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذه الآية؛ حيث قال: «أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تخالطه بشاشته، بل دخل فيه إما خوفاً، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾؛ أي: إن استمر رزقه رغداً، ولم يحصل له من المكاره شيء، اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه، فهذا ربما أن الله يعافيه، ولا يقيض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ من حصول مكروه أو زوال محبوب ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾؛ أي: ارتد عن دينه، ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ﴾ أما في الدنيا؛ فإنه لا يحصل له بالردة ما أمَّله الذي جعل الردة رأساً لماله، وعوضاً عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له، وأما الآخرة فظاهر، حرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ⑪﴾؛ أي: الواضح البين»[2] انتهى.

---

(١) (٤٧٤٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان (ص٥٣٥، ٥٣٤).

المؤثر الثالث: ضعف الجانب التعبدي وخاصة أعمال القلوب:

قَلَّ أن تجد مسلماً اعتنى بقلبه من الناحية الإيمانية، وراقب مستوى تعلقه بالله وتوكله عليه وحبه له، واجتهد في تخليصه من دواخل الغل والحسد والكبر إلا وهو يعيش لذة إيمانية لا يَعْدلُها شيء، ولا يفكر مجرد تفكير أن يستبدلها بشيء، وأما من افتقد كل ذلك فقد يستهويه أي جاذب آخر.

المؤثر الرابع: ضعف أدوات البحث والتوثيق والمعرفة:

إنَّ شيوع التفكير الناقد عند مجتمع ما، وارتفاع مستوى الأدوات البحثية والعلمية فيه، يجعل من الصعوبة التأثير عليه بأفكار خارجية، والعكس صحيح، وهذا ما نلاحظه في قضية انتشار كثير من الشبهات التي لم تكن الوقاية منها تحتاج لأكثر من تفكيرٍ ناقد، وتدقيقٍ علميّ حتى يبطل تأثيرها. وسيأتي معنا في هذا الكتاب أن من القواعد الوقائية: تكوين العقل الناقد، وتعزيز أدوات البحث العلمي.

المؤثر الخامس: ضعف العلم الشرعي:

عَمِلْتُ استفتاء في دورتين من دورات (كيف نتعامل مع الشبهات الفكرية المعاصرة) عن أسباب انتشار الشبهات، فكان من الإجابات التي حظيت بأكبر عدد من الأصوات: ضعف العلم الشرعي عند الشباب.

ووجه كون ضعف العلم سبباً للتأثر بما قد يطرأ من الشبهات، هو أن التأصيل الشرعي يعطي حامله قاعدة معرفية ومنهجية يستطيع أن يُحاكِم إليها ما يطرأ على ذهنه من معلومات وتحليلات جديدة، وأما من يفتقد هذه القاعدة المعرفية فإن من السهل وقوعه في الاضطراب المنهجي والسقطات المعرفية الكبرى.

المؤثر السادس: الفراغ الوقتي والذهني والروحي:

أذكر حالة لامرأة أصيبت بوسواس عقدي من أشد ما رأيت وسمعت في حياتي، وقد اجتهدتُ في إقناعها بطرق التخلص من الوسواس فلم تستجب ذلك، وأظنها ذهبت إلى طبيب نفسي أيضاً، فلم يغن ذلك شيئاً، فأرشدتُها إلى أعمال علمية ومعرفية تقوم بها تملأ وقتها وذهنها ـ فقد كانت متفرغة تماماً ـ، فكانت النتيجة أفضل وأقرب مما توقعت؛ لقد توقفت أسئلتها التي كانت كالسيل في وقت قياسي جدّاً، ولستُ أبالغ في هذا ولا لي حاجة إلى ذلك، والمراد أن الفراغ الذهني والروحي يجعل الذهن والقلب عرضة لأي شاغل ولو كان سيئاً، وأما من كان وقته ممتلئاً، وذهنه وروحه مشبعة بالعلم والعمل والمعرفة والإيمان فهذا عائق وحاجز أمام كثير من الأفكار المنحرفة، والخواطر المقلقة.

النوع الثالث من المؤثرات في انتشار الشبهات:

وجود جوانب من النقص في طريقة الدعوة والتوجيه والمعالجة الشرعية.

وتظهر جوانب النقص في صور، منها:

١ ـ الفجوة بين (كثير) من المتخصصين الشرعيّين وبين عموم الشباب، وهذه الفجوة تؤدي إلى نقصٍ في تصور الواقع، وتؤدي إلى عزلة شعورية بين الطرفين، والأشد من ذلك أنها تؤدي إلى تعطيل دور القدوات الذي له شأن كبير في الجانب الإصلاحي.

ولك أن تستحضر سيرة النبيّ ﷺ، وقربه من مختلف طبقات المجتمع، وأثر ذلك على النّاس الذين يرون الخُلُق العظيم والحلم والصبر متمثلاً في إنسان يمشي على الأرض؛ فكم لذلك من معنًى حسنٍ وقيمة إيجابيّة في النفوس.

٢ ـ قلة تنويع الأساليب الدعوية بما يتناسب مع مؤثرات الواقع ومستجداته. وقد كان النبي ﷺ يحرص في خطابه على تنويع الأساليب لإيصال المعلومة الشرعية؛ تارة بالسؤال، وأخرى بالرسم، وثالثة بالخطبة البليغة وغير ذلك، مع أن معه ﷺ من نور الوحي، وتأييد الله ما يُغني عن كثير من الأساليب، فالاقتداء به في ذلك ﷺ من الأمور المؤكدة، خاصة في هذا العصر الذي راجت فيه سوق الإعلام، ورَبَا فيه سحر الصورة.

٣ ـ ومن جوانب النَّقص أيضاً: ضيق مساحة الحوار المفتوح، الذي يشعر فيه الشباب بوجود وسيلة آمنة، متسعة الأفق؛ لاستقبال أسئلتهم واستشكالاتهم.

وكم يسرح خيالي إلى حالة حوارية أتمنى رؤيتها في الساحة الدعوية، وتتمثل في صورة ذلك المسرح الممتلئ بالحضور الشبابي، وعلى المنصة محاضر متمكن شرعيّاً وناضج فكريّاً ومتوسع معرفيّاً، يمتلك الأسلوب الإقناعي، والقدرة الحوارية العالية، ويكون المجال مفتوحاً لمداخلات الشباب وأسئلتهم واستشكالاتهم بكل حرية وأريحية، فيُحسِنُ استقبالها، ويُبهر الحضور في الجواب عنها، كما كان يفعل أحمد ديدات، وكما يفعله ذاكر نايك حالياً، فكم من رسالة إيجابية ستُغرَس في نفوس الحاضرين، وكم من أفكار ستُصحَّح، وإشكالات تُزال، ونفوس تصفو، وقلوب تطمئن، ولا أدري هل سيتحقق هذا الحُلم؟ وهل سيكون قريباً؟ وكم هم أولئك الدعاة القادرون على الوقوف في مقام كهذا؟ اللَّهُمَّ أصلح أحوالنا.

٤ ـ ضعف الخطاب الشرعي/العقلي المبرهن. وهذا من أكبر الأسباب. وسأزيده تفصيلاً في الفقرة القادمة التي هي:

سِمات الخطاب الديني المؤثر في الساحة الفكرية المعاصرة:

سأذكر خمس سمات إن توفرت في الخطاب الدعوي فسيكون له أثر كبير بإذن الله في الساحة الفكرية المعاصرة، وقد أطلْتُ نوعاً ما في تفصيل السمة الأولى، ـ لأهميتها ـ وأرجو ألا يقطع التفصيلُ تسلسل السمات في ذهن القارئ؛ فليكن على استحضار لذلك:

السمة الأولى: الاهتمام بالخطاب العقلي:

هناك من يظن خلوّ الأدلة الشرعية (النقلية) من الدلائل العقلية، ومن ثم يُهوِّن من الدليل النقلي في مقابل الدليل العقلي، ويجعل اليقين إنما يتحصل بالدليل العقلي لا بالدليل النقلي، وهذا كله غير صحيح؛ فإنَّ الأدلة الشرعية مليئة بالدلائل العقلية على أصول العقيدة والتوحيد وغيرها.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «بل الأمر ما عليه سلف الأمة وأئمتها أهل العلم والإيمان من أن الله ﷻ بيّن من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره، ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه»[1].

وقال ابن أبي العزّ الحنفي: «وإذا تأمل الفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية وجد الصواب

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٨٤).

منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية بأوضح عبارة وأوجزها، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله»[1] انتهى.

ومن يقرأ كتاب الله، ويتأمل في سُنَّة نبيه ﷺ، يجد حضوراً ظاهراً للخطاب العقلي فيهما.

فمِن ذلك على سبيل المثال: آيات إثبات البعث في القرآن؛ كقوله سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩]. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وهذا في غاية الإقناع العقلي؛ فإن مشركي قريش كانوا يُقرُّون بأنَّ الله خالق السماوات والأرض، فكان الاستدلال عليهم بأن الذي خلق السماوات والأرض من العدم قادر على أن يخلق مثلها، ومن باب أولى أن يخلق ما دونها ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

ومن الخطاب العقلي في القرآن قوله سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]، فإن هذا التقسيم يجعل العقل يضرب الاحتمالات بين القسمين المذكورين،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٧٦).

وحين لا يجد من البراهين ما يعضد أحدهما فإنه سيبحث عن خيار ثالث تبيِّنه الآيات التي تَلَت الآية المذكورة والتي سبقتها، وهو الله ﷻ.

ومن المراجع في الباب: كتاب «بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم» لزينب الكردي.

وحين ننتقل إلى سُنَّة النبي ﷺ، فسنجد مواقف كان الإقناع العقلي فيها في غاية الجمال والبهاء، والحجة والإقناع، منها ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل من بني فزارة إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلاماً أسود. فقال النبي ﷺ: «**هل لك إبل؟**» قال: نعم. قال: «**فما ألوانها؟**» قال: حُمر، قال: «**فهل يكون فيها من أورق؟**» قال: إن فيها لوُرْقاً. قال: «**فأنى أتاها ذلك؟**» قال: عسى أن يكون نزعه عرق. قال: «**وهذا عسى أن يكون نزعه عرق**»»[1].

(١) صحيح البخاري (٦٨٤٧)، صحيح مسلم (١٥٠٠).

طُرُق مخاطبة العقول

وسائل مخاطبة العقول على أنواع:

ـ منها ما يعود إلى طريقة الخطاب وأسلوبه.

ـ ومنها ما يعود إلى طريقة إبطال أقوال المخالفين.

ـ ومنها ما يعود إلى خطوة مسبقة في تقرير حدود العقل والعلاقة بينه وبين التسليم لله والرسول.

فأما **النوع الأول**، وهو ما يعود إلى طريقة الخطاب، فإن الأساليب التي يُحرَّك بها العقل ويُثار متعددة:

منها: أسلوب السؤال، وقد استعمله النبي ﷺ لإيصال بعض المعلومات، كما في حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «**أخبروني عن شجرة تشبه أو كالرجل المسلم لا يتحات ورقها**»[1]، وكقوله ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: «**أتدرون ما المفلس؟** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع! فقال: **إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل**

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٩٨)، صحيح مسلم (٦٤).

مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا؛ فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه؛ ثم طرح في النار»[1].

ومن الأساليب أيضاً: استعمال القياس، وضرب الأمثلة، وسر المثال من جهة العقل هو القياس، ومن الأمثلة العصرية التي يُمكن أن تُضرب في الإجابة عن سؤال: كيف نؤمن بالله سبحانه ونحن لا نراه: (الإلكترون)؛ حيث إنه من الأمور العلمية التي يتعامل معها العلماء كحقيقة موجودة مع عدم رؤيتهم له، وإنما يرون آثاره فقط. فكذلك نحن نؤمن بالله سبحانه وإن لم نره، ولكنّا نرى آثاره.

ومن الأساليب أيضاً: اتباع مهارات الإلقاء والإقناع، وهي من المهارات التي ينبغي على شريحة الدعاة والخطباء إتقانها، وحتى الموهوب ـ منهم ـ في هذا المجال يستفيد من بعض المهارات في برامج الإلقاء ودورات الإقناع.

ومن الأساليب أيضاً في إيصال المعلومة إلى العقول: الاهتمام ببناء المقدمات الـمُسلَّمة وتقريرِها؛ ثم الانطلاق منها إلى النتيجة المطلوب إثباتها، وهذا من أهم الأمور.

مثال ذلك: الانطلاق من مقدمة: (أن القرآن نزل لكل البشر وليس للصحابة خاصة) للوصول إلى نتيجة أننا

---

(١) (٢٥٨١).

مخاطبون بآيات طاعة الرسول والتي لا يمكننا امتثالها إلا باتباع ما صحَّ عنه من أخبار.

هذا كله في **النوع الأول** من طرق مخاطبة العقول، **وأما النوع الثاني** وهو ما يعود إلى طريقة إبطال أقوال المخالفين فيكون بطُرُق:

منها: إبراز التناقضات العقليّة أو المنهجية في خطاب الخصوم.

مثال ذلك: إبراز تناقض مُنكِر السُّنَّة حين يستدل بالسُّنَّة على قوله.

ومنها أيضاً: إبراز اللوازم الفاسدة لأقوال الخصوم.

مثال ذلك: إظهار فساد قول الملحدين واللادينيين المنكرين للبعث والحساب بالسؤال عن مصير الظلمة الذين قتلوا آلاف أو ملايين البشر هل سيُعاقبون بعد موتهم، وهل سيقتص المظلومون منهم؟ فالملحدون لا يعترفون بالبعث فكان من اللوازم الفاسدة لقولهم أنه لا فرق بين الظالم والمظلوم، بل إن حال الظالم أفضل؛ لأنه استمتع بحياته ـ التي يظن أنها لا حياة غيرها ـ بخلاف المظلوم الذي حُرم منها.

وأما النوع الثالث من طرق مخاطبة العقول فهو في الاهتمام بالكلام عن العقل من جهة كونه مصدراً للمعرفة،

وحدود عمله، والعلاقة بينه وبين النقل، وموقفه من الغيبيات، ونحو ذلك، فهذا كله مما يضع العقل في موضعه الصحيح، ويجعله حَسَن الاستيعاب، وحَسَن التقدير.

كانت تلكم جولة في رحاب العقول، ننتقل بعدها إلى سمةٍ أخرى من سمات الخطاب الدعوي المؤثر، وهي:

ثانياً: الوعي الجيد بحقيقة التساؤلات الموجودة في الساحة، وبحقيقة الأقوال المخالفة.

ربما يحتار الخطيب أو الداعية في اختيار الموضوع الذي يطرحه عبر منبره أو كرسيه أو حتى عبر شبكات التواصل الاجتماعي، ولكن هذه الحيرة تزول إذا كانوا متابعين لما يُشغل الشباب ويجتذب تفكيرهم، فالقضايا متجددة، والأفكار متسارعة، والذي يرصد الواقع بذكاء، يعرف متى يتكلم، وبماذا يتكلم، فإذا رأى اهتماماً بالسجال الفكري حول قضية شرعية فإنه يبادر بصوته فيها بعد أن يدرك حقيقة الإشكال، وطبيعة التساؤل، وبعد أن تفتحت الأسماع، وتلهّفت متتبعة كل صوت في هذه القضية.

ثالثاً: مراعاة أحوال المخاطبين وتفاوت مستوياتهم، ومعرفة ما يُقرب وما يُنفّر من أساليب الخطاب في الساحة الشبابية.

رابعاً: مقابلة الحجة بالحجة، لا بالسب والشتم، والعدل مع المخالف.

إن مما يؤثر تأثيراً سلبيّاً أَنْ يُقابَل الطرح التشكيكي في الثوابت الشرعية بالسب، أو التصنيف لصاحبه، دون أن يُبَيَّن وجه الخطأ في كلامه بالدليل والإقناع؛ فإننا نعيش في زمن له مستوى معين من اللغة المقبولة في الأوساط الشبابية، إنها تلك اللغة التي تناقش الكلام لا المتكلم، والمعلومة لا قائلها، ولا شك أن هذا لا يصح أن يكون مُطّرداً دائماً، ولكن متى كان ذلك ممكناً ولا يُضيع حقّاً فإنه هو الأكثر تأثيراً.

كما أن العدل مع المخالف، والمحافظة على مستوى من الأخلاق الفاضلة معه، وعدم اتهام نيته لمجرد أنه طرح قولاً فيه خطأ، لَمِن أهم سمات التأثير في الساحة الفكرية المعاصرة، وتبقى استثناءات مستفزة لا يملك المرء معها أعصابه، ولا أجد مثالاً أقرب على ذلك ممن يسمون أنفسهم بالقرآنيين.

خامساً: الرغبة الصادقة في هداية الناس.

فإن صدق النية، والحماس للفكرة، والإخلاص لله في تبليغها، ونفع الناس بها، يظهر على تقاسيم الوجه وتعابيره، ويعطي للمتابع شعوراً بالقيمة والأهمية، وقبل ذلك فإن الله جاعل لكلامه محلّاً وقبولاً.

كيف نتعامل مع الشبهات الفكرية المعاصرة؟

إنّ إحسان التعامل مع هذه الموجة من الشبهات يقتضي العمل على ثلاثة محاور:

محور الوقاية لمن لم يتأثر بها، ومحور العلاج لمن تأثر، ومحور الجدل والحوار مع مثيريها.

ولذلك سأتناول في الصفحات القادمة هذه المحاور الثلاثة عبر قواعد منهجية لكل منها، لتكون كما يلي:

أولاً: قواعد وقائية من الشبهات الفكرية المعاصرة.

ثانياً: قواعد للتعامل مع الإشكالات والشبهات بعد ورودها.

ثالثاً: قواعد حوارية ومهارات جدلية لنقاش مثيري الشبهات.

أولاً: قواعد وقائية
من الشبهات الفكرية المعاصرة

القاعدة الأولى: تعزيز اليقين بأصول الإسلام:

من القناعة التي خرجتُ بها بعد التَّماسِّ مع واقع تساؤلات الشباب، أنه لا بد من الاهتمام الجاد بطرح دلائل أصول الإسلام بصورة عقلية تزيد الإيمان وتُعزز اليقين وتحمي القلب من لهيب الشكوك، وأن القلب إذا لم يكن موقناً بهذه الأصول عارفاً بدلائلها فإنه يكون سريع الشك، قريب الاضطراب.

وهذه القضية مع حضورها الكبير في القرآن، ومع شدة الحاجة إليها إلا أن العناية بها ليست على القدر الذي ينبغي لها، ولذلك؛ لم يكن غريباً أن يتأثر كثير من أبناء المجتمع المسلم بموجات التشكيك في الله سبحانه أو في كتابه أو رسوله عليه الصلاة والسلام.

ولأجل أهمية هذه القاعدة الوقائية فسأتحدث عن بعض الوسائل العملية التي تدعمها.

وسائل تعزيز اليقين:

أولاً: إحياء وإشاعة عبادة التفكر في آيات الله الكونية.

لقد جاء في كتاب الله توضيح العلاقة بين التفكر وبين إدراك الحقائق الكبرى، فقال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فإنهم بعد تفكرٍ استدلوا بخلق السماوات والأرض على نفي العبثية والعشوائية.

وكذلك فإن التأمل والتفكر في النفس وفي الآفاق يؤدي إلى اليقين بصحة القرآن ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، والضمير في (أنه) عائد إلى القرآن، وهي من الآيات التي تستوقف المتأمل كثيراً.

وقد ذمّ الله ﷻ المعرضين عن التفكر في آياته فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وأرجو ألا تكون المدَنيّة الحديثة سبباً في حجبنا عن عبادة التفكر في السماء والنجوم والنفس والحيوان.

ومن **وسائل إحياء** وإشاعة عبادة التفكر:

١ ـ نشر المواد المرئية والمقروءة التي تخدم مجال التفكر والتأمل.

إن كثيراً من المواد المرئية المتعلقة بالكون والإنسان والحيوان والبحار تعين على التفكر في آيات الله، وممن كان يحرص على إبرازها في برامجه د. مصطفى محمود رحمه الله تعالى، وكان لها أثراً طيباً.

٢ ـ عمل مسابقات على أفضل إنتاج لمواد مرئية أو بحوث مكتوبة في هذا المجال.

٣ ـ عمل مسابقات أسئلة أو تلخيص لمواد سابقة منشورة في هذا المجال.

ثاني الوسائل لتعزيز اليقين: إشاعة عبادة التفكر في آيات الله الشرعية، وربط الناس بالقرآن، فقد أنزله الله سبحانه ليرشد الناس إلى الغاية التي خُلِقوا لأجلها، وليعرّفهم بنفسه، ويخبرهم بالبعث والنشور والحساب والجزاء، ويثبت لهم ذلك بالأدلة البينة القاطعة، ولا يزال القرآن ولن يزال غاسلاً للشكوك، معززاً لليقين، نافثاً روح الإيمان في نفوس من أراد الله بهم الخير.

وفي الفترة الحالية توجد جهود طيبة في إشاعة عبادة التدبر للقرآن، وتقريب تفسيره للناس، منها ما يقدمه مركز (تدبر)، ومركز (تفسير) في هذا المجال، فجزاهم الله خيراً.

ثالثاً: العناية بالكتب التي اهتمت ببيان دلائل صحة أصول الإسلام، وقد كَتَب العلماء قديماً وحديثاً في هذا

المجال، فنجد كثيراً من المتقدمين كتبوا في إعجاز القرآن كالخطّابي والرماني والباقلاني والجرجاني وغيرهم، كما نجد أكثر من ذلك في باب دلائل النبوة ككتاب أبي نعيم الأصبهاني، والقاضي عبد الجبار، والبيهقي، وغيرهم كثير. غير أني سأذكر بعض الكتب المعاصرة في هذا المجال والتي يُمكن أن تُدرج في برامج القراءة الجماعية أو تكون ضمن مسابقات تلخيص كتاب ونحو ذلك.

ـ كتاب النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز، وما أجمله من كتاب يتحدث عن دلائل صحة القرآن، وصدق النبي محمد ﷺ، بعبارات أدبية رشيقة، وتعبيرات بيانية تلامس المشاعر والوجدان. وله كذلك كتاب آخر في نفس الموضوع وهو: مدخل إلى القرآن الكريم.

ـ كتاب براهين وأدلة إيمانية لعبد الرحمٰن حسن حبنّكة الميداني رحمه الله.

ـ كتاب نبوة محمد من الشك إلى اليقين لفاضل السامرائي.

ـ كتاب: الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد لسعود العريفي، وهو كتاب كبير، ذو مستوى عالي من التحريرات العلمية.

ـ كتاب كامل الصورة الجزء الثاني منه.

ومن وسائل تعزيز اليقين:

رابعاً: الاهتمام في الخطاب الدعوي بالحديث عن الله وصفاته وعظمته ووحدانيته.

لقد حظي باب (توحيد الألوهية) في الدرس العقدي المحلّي بنصيب كبير من الاهتمام، وكان لذلك أثر طيب في توعية الناس بهذا الباب، ولكن لم يحظ قرينه وسابقه (توحيد الربوبية) بالاهتمام الـمُستَحَق له، مع أن القرآن مليئ بالحديث عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه، بل إنّ أول ما نزل من القرآن قول الله سبحانه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾، والحاجة الوقتية ماسة للحديث عن هذا الباب وإدراجه في مختلف وسائل وأبواب الخطاب الدعوي.

خامساً: الاهتمام بعبادة القلوب في الدعوة والعلم والعمل.

لقد كان إبراهيم الخليل عليه السلام منيباً متوكلاً خاشعاً لله سبحانه، وكان من الموقنين، فحين حاجّه قومه في الله سبحانه، قال لهم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ [إبراهيم: ٨٠]؟!

إنهم لا يشعرون بما يملأ صدره وقلبه من اليقين والمعرفة والنور، إنه لا يمكن أن يستبدل هذا النعيم الإيماني بغيره، وهل يُستَبدَل الأمن بالخوف؟ والطمأنينة بالاضطراب؟

ولذلك؛ نقرأ في الآية التالية: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١﴾ [الأنعام: ٨١]؟

وهناك عبارة مشهورة لأحد عُبّاد السلف يقول فيها: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف»؛ أترون من يشعر بهذا الشعور تؤثر فيه الشبهات؟

وهناك معادلة إيمانية جميلة ذكرها هرقل حين كان يسأل أبا سفيان عمَّن كانوا حول النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار، هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو سفيان ـ وهو حينئذ كافر ـ: لا! فقال هرقل: وكذلك الإيمان، حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد[١].

إنّ الوقاية من شبهات الشك والكفر والإلحاد لن تكون لقلب لم يذق حلاوة الإيمان؛ إذ إنه لن يشعر بالخسارة والفقد لو تركه، وأمّا من ذاق طعم الإيمان ولذّته فلن يرضى بأي بديل آخر؛ ولذلك كله؛ فإن العناية بتقوية إيمان القلب، وتعلّقه بالله سبحانه، وتوكله وإنابته وخشيته ومحبته ورجائه، لَمِن أكبر أسباب الوقاية من الشبهات، فأين حضور هذه القضية في خطابنا؟ وهل أعطيناها القدر الذي تستحقه؟ ألم

(١) صحيح البخاري (٥١) مختصراً.

تكن محل عناية حقيقية في القرآن؟ وفي خطاب النبي ﷺ؟ وفي كلام أهل العلم؟.

إن مما لا شك فيه ولا ريب أن كثيراً من الشبهات منشؤها ضعف الإيمان وعدم تذوق حلاوته، ولذا نحن بحاجة إلى مراجعة إيماننا وقلوبنا وأعمالنا وصِدْقنا مع الله سبحانه، وهذا كله من الوقاية والمناعة القوية ضد الحرب الفكرية الموجهة إلى الإسلام وثوابته.

ومن الكتب التي اعتنت بهذا الباب، كُتُب الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى، وخاصة كتابه: مدارج السالكين، وقبله كثير من المتصوفة والمتنسكة والعباد، لهم كلام متفرق ومجموع فيه.

سادساً: قصص المسلمين الجدد، فإن لها أثراً كبيراً في الارتياح الإيماني، وخاصة حين ترى تنوع تخصصاتهم، واختلاف بلدانهم، وأنهم إنما دخلوا في الإسلام عن قناعة، ورضا، وشعور بالأفضل، هذا كله مع شدة التشويه الذي يُمارس ضدّ الإسلام والمسلمين، ثم نجد تزاحم الغربيين والشرقيين على بوابة الإسلام!

والجميل في قصص هؤلاء أنهم يُوقِفُوننا على معانٍ إيمانية ربما تفوتنا، فإنهم يقرؤون القرآن بعين متشوفة، وقلب متطلع إلى معرفة كلام الله سبحانه، وقد ذاقوا مرارة الكفر

والحيرة قبل ذلك، وقد كنتُ ألمس ذلك وأنا أشاهد حلقات برنامج (بالقرآن اهتديت) لفهد الكندري وفقه الله، وهو من أجمل البرامج في هذا المجال، وأُرشح حلقاته للعرض والنشر في البرامج العائلية والمدرسية لتحقيق غرض تعزيز اليقين.

القاعدة الوقائية الثانية: تكوين العقل الناقد:

العقل الناقد: هو العَقْل الفاحص؛ الذي لا يقبل دعوى دون دليل، ولا يقبل الأدلة الفاسدة، ولا تُمرَّر عليه المغالطات المنطقية.

إن كثيراً من الشبهات التي أثرت على شريحة من الشباب كان مِن أهمّ عوامل تأثيرها: غياب التفكير الناقد، والعقلية الفاحصة؛ ولذلك فإن العناية بغرس معاني التفكير الصحيح، القادر على التمييز بين المقبول والمردود من المعلومات، يعتبر أمراً مهمّاً جدّاً في التحصين من الشبهات وتعزيز المناعة الفكرية.

وقد اعتنى علماء المسلمين بالفحص والتدقيق في المعلومات قبل قبولها، ومن أبرز الصور التي تُمثل ذلك: ما أنتجه علماء الحديث من منظومة فحصية مذهلة، نقدوا بها رواة الحديث، ولم يغتروا بمجرد المظاهر، وقارنوا بين الروايات، وضعفوا المنقطعات، واكتشفوا الكذابين، حتى

صار منهجهم النقدي مأموناً على سُنَّة النبي ﷺ.

وكذلك اعتنى علماء المسلمين ببيان أسس الجدل الصحيح، والمناظرة المثمرة، وتحدثوا عن الحجج المقبولة، والدعاوى المردودة، وغير ذلك مما يستدعيه الفحص والتدقيق في كتب «آداب البحث والمناظرة» أو «علم الجدل».

وما سبق كله يختلف عن العقلية المتشككة المولعة بـ(لا أدري) و(ربما) و(ما يدريني)، فإن تَمَيُّزَ العقل الناقد ليس بمقدار ما يرده ويشكك فيه من الأخبار، وإنما بمقدار ما يلاحظه من عوامل وقرائن تستدعي الرد، وأخرى تُقوي القبول.

ولا شك أننا نحتاج إلى دورات في هذا الجانب، ومحاضرات، وتطبيقات عملية ترشد إلى التطبيق الصحيح للتفكير الناقد وتميز بينه وبين التفكير السلبي المتشكك، ويمكننا أن نربي أبناءنا على التفكير الناقد بتطبيقه على ما يسمعونه من أخبار وآراء في المدرسة وبين الأصدقاء، فيتم تدريبهم عليه بمحاكمة هذه الأخبار إلى مبادئ التوثيق والتحليل السليم.

ومما يساهم في تقوية أدوات العقل الناقد: أن يكون على دراية بطرق البحث العلمي ومهاراته، فالعقل الناقد يحتاج إلى معرفة بمصادر المعلومات وكيف يتعامل معها

ليتثبت ويدقق، ولذلك نحن بحاجة إلى تقديم دورات في كيفية البحث الالكتروني والورقي عن المعلومة من المصادر الموثوقة، وفي كيفية البحث عن صحة الحديث في الشبكة والكتب.

القاعدة الوقائية الثالثة: التأصيل الشرعي:

والمراد بالتأصيل الشرعي: دراسة أصول الفنون الشرعية (العقيدة، الفقه، أصول الفقه، المصطلح، اللغة، علوم القرآن)، وهذا الأمر مهم جدّاً؛ لأنه يُكَوِّن عند المتعلم قاعدة معرفية صلبة يؤول إليها ويستند عليها، بخلاف من يفتقد هذه القاعدة فإنه لا يكون له أساس محكم.

ومما يساعد على نشر هذا الأمر الوقائي: تسهيل العلوم الشرعية، وتقريبها للشباب، وتقديمها في دورات مختصرة، بأسلوب حديث، ووسائل تعليمية مُعِيْنة؛ فليستحضر من يقوم بهذا العمل أنه يؤدي دوراً مهمّاً في الوقاية من الشبهات الفكرية المعاصرة.

القاعدة الرابعة: تحديد مصادر التلقي والمعرفة والموقف من كل مصدر:

ما المصادر التي نعتمد عليها في تكوين المعرفة؟ وما حدود كل مصدر؟ وهل بينها تداخل؟ وما مصادر التلقي

الشرعية التي لا يصدر عنها خطأ؟ وما مصادر الاستفادة الشرعية التي يمكن أن تخطئ وتصيب؟

كل هذه الأسئلة تهم الجيل، وإذا قُدِّمَت الإجابة عنها بصورة صحيحة فإنها تُنظم العقل، وتبين مداخله ومخارجه فيما يعتمد عليه لتكوين المعارف، وبالتالي يكون ذلك من وسائل الوقاية المحتاج إليها في هذا الوقت.

ويدخل في ذلك موضوع العقل والنقل، والعلاقة بينهما، وتقديم أيهما على الآخر، كما نستطيع بالإجابة عن الأسئلة السابقة أن نعرف حدود الحِسّ في كونه مصدراً للمعرفة، وأنه ليس المصدر الوحيد، إذْ إنّ هناك الخبر الصادق الذي نؤمن عن طريقه بالأمور الغيبية.

كما نستطيع بالإجابة عن الأسئلة السابقة أن نفرق بين المصدر الشرعي المعصوم وبين المصدر غير العصوم، فالقرآن والسُّنَّة لا يصدر عنهما خطأ، وكذلك اجتماع أفهام علماء المسلمين على أمر معين من أمور الشرع ـ إذا ثبت هذا الاجتماع ـ وأما الفذّ ـ أي: الفرد ـ من العلماء فإنه مهما بلغ من المنزلة العلمية فلا يرقى لأن يُسَلَّم بكل أقواله، ولو كان أبا حنيفة أو مالك بن أنس أو الشافعيّ أو أحمد رحمهم الله تعالى جميعاً.

ومما يدخل في هذه القاعدة المهمة: موضوع التسليم

للنص الشرعي، وعلى أي شيء يستند، ومن المراجع المهمة في جانب التسليم: كتاب ينبوع الغواية الفكرية لعبد الله العجيري، وكتاب التسليم للنص الشرعي لفهد العجلان.

القاعدة الخامسة: عدم التعرض لخطاب الشبهات من غير المتخصص:

من المهم لمن يتخصص في الرد على الشبهات أن يكون عارفاً بتفاصيلها وقائليها وتاريخها، وربما يحتاج إلى قراءة بعض كتبهم، أو الدخول إلى بعض مواقعهم وصفحاتهم، حتى يحسن الجواب عنها، وأما غير المتخصص فإن في دخوله إلى عالم الشبهات مخاطرة غير مأمونة العواقب، ولا أعني بالدخول هنا: معرفة الرد على أبرز الشبهات وما يتعلق بذلك، وإنما أقصد القراءة لكتبهم، أو استعراض تغريداتهم ومشاركاتهم في شبكات التواصل، إما من باب التعرّف على ما عند (الآخرين)، أو من باب الفضول وتضييع الوقت، أو من باب الثقافة العامة ونحو ذلك، وأنا أعرفُ من دخل إلى صفحات وحسابات إلحادية بدافع حسن فتأثر تأثراً سلبيّاً كبيراً ما كان يريده ولا يظنّه، وهذا يُذكّرنا بتحذيرات السلف الصالح من الاستماع إلى أهل البدع؛ لأن القلوب ضعيفة والشُّبَه خطّافة ـ كما قال الذهبي رحمه الله تعالى ـ.

القاعدة السادسة: القراءة الوقائية في كتب الردود على الشبهات، بشروط:

الأول: أن تكون الشبهات معاصرة ومنتشرة، أو بتعبير عصري: أن تكون في دائرة الخطر.

الثاني: أن تكون من الكتب التي تُجمِل في ذكر الشبهة وتُفصل في الرد، وليس العكس؛ فإن بعض الكُتّاب يُفصّل في عرض الشبهة، ويذكر مستنداتها وأصولها، وهذا جيد بالنسبة للمتخصصين، ولكن نحن نتكلم هنا عن وقاية غير المتخصصين، فقراءتهم للشبهة المفصلة المذكور أدلتها بتفصيل لا حاجة لها.

الثالث: أن يكون الردّ محكماً، ويُعرَف هذا عن طريق المتخصصين.

ومن الكتب المناسبة في مجال الرد على الشبهات المعاصرة وتُقرأ على سبيل الوقاية: كتاب السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي لمصطفى السباعي، وكتاب كامل الصورة بجزئيه الأول والثاني.

القاعدة السابعة: ترتيب الأولويات الكبرى في النظر الإنساني على حسب مراد الله:

يحتاج الشاب في مجال الأولويات الكبرى معرفة الترتيب الصحيح لأهمية هذه الأمور:

- الإيمان بالله واتّباع دينه.

- التقدم العلمي والمادي.

- القيم الأخلاقية.

- الحرية الشخصية غير المقيدة بشيء.

وحين يختل ترتيب الأهمية بين هذه الأمور لا يقف الشخص موقفاً صحيحاً متوازناً تجاهها، فلو كان التقدم المادي عنده هو رأس الهرم؛ فكيف ستكون نظرته لغير المسلمين الذين حققوا السبق في هذا المجال؟ وكيف سينظر للمسلمين؟

وأما حين يرجع إلى القرآن ليعرف مراد الله سبحانه وما قاله في ذلك، فسيجد أن أقوام الأنبياء كانوا على درجة عالية من التقدم المادي، ولكن القرآن لم يُصوِّر هذا التقدم في مقابل كفرهم بالله سبحانه على أنه نجاح حقيقي، وليس ذلك لعدم أهمية الحضارة العلمية والتقدم الصناعي، وإنما ليعلم الناس أن هذه الأمور يجب ألّا تَحْرِف الإنسان عن الغاية الأولى التي وُجد لها، وهي عبادة الله ﷻ؛ فإذا كان هذا التقدم صارفاً عن تحقيقها فهو مذمومٌ.

ومن الكتب المهمة جدّاً في هذا الموضوع: كتاب مآلات الخطاب المدني لإبراهيم السكران.

القاعدة الثامنة: تعزيز البرامج الجماعية المفيدة فكريّاً وعاطفيّاً:

إن انتماء الشاب إلى البرامج الجماعية التي تجتذب اهتمامه، ونشاطه، سواء على نطاق العائلة أو الأصحاب يعطيه غَناءً معرفيّاً وعاطفيّاً، ويقطع الطريق على كثير من أنواع الفساد للتسلّل إلى دائرة اهتماماته وجهوده؛ إنها تعطيه فرصة لاكتشاف قدراته، ثم الشعور بالثقة والهوية، وهذا يُشكل مانعاً نفسيّاً من الاندفاع المضاد للأفكار غير الصحيحة.

فمن المهم جدّاً الاعتناء بالبرامج العائلية المفيدة، التي تعطي ساحة من الحوار والفكر، مثل برامج القراءة الجماعية ومن ثم النقاش في القَدْر المقروء، وكذلك الأندية الثقافية التي يُديرها الثقات الحريصون على الهوية الإسلامية، ونحو ذلك من البرامج؛ فهذا كله مما يساعد في تعزيز المناعة الفكرية، والوقاية من الشبهات المعاصرة.

ومن اللطيف في موضوع الصحبة وأثرها في الثبات أنها من وسائل تحقيق حلاوة الإيمان كما في الحديث: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان... وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله**»[(١)]، ومن ذاق حلاوة الإيمان فلن ينتقل إلى مرارة الكفر والحيرة والشك.

---

(١) صحيح البخاري (١٦).

القاعدة التاسعة: الدعاء والابتهال:

اعتدنا على الدعاء لمن يسافر بأن يحفظه الله من الأخطار، ويقيه الشرور، ويرده سالماً، وفي الواقع فكلنا مسافرون في هذه الحياة مقتربين في كل مرحلة من الأجل، وكثيرة هي الأخطار المحتملة في هذا السفر، ونحتاج إلى عناية الله وحمايته لنا، وأثمن ما نخاف عليه في هذا السفر هو إيماننا الموصل إلى مرضاته سبحانه عنّا، قال إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ [ابراهيم: ٣٥]، وقال محمدٌ ﷺ: «**اللَّهُمَّ لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت؛ أعوذ بعزتك لا إلٰه إلا أنت أن تضلني؛ أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»(١).

وفي غمرة الشبهات وخطرها وكثرة الساقطين فيها فإننا بحاجة ماسة إلى الدعاء بأن يقينا الله وأهلينا وذرياتنا شرها، ويحفظ علينا إيماننا وتوحيدنا.

---

(١) صحيح مسلم (٢٧١٧).

قواعد للتعامل مع الإشكالات والشبهات بعد ورودها

كانت القواعد السابقة عن الوقاية من الشبهات قبل أن تَرِد على المسلم، وأما إن واجهته شبهة فهو بحاجة إلى مزيد من القواعد المنهجية التي تعينه على إحسان التصرف تجاهها.

القاعدة الأولى: استعمال التفكير الناقد والتوثيق العلمي في التعامل مع المعلومات والأفكار:

يجب ألا يكون لأي معلومةٍ قيمةٌ تستحق النظر والنقاش، ما لم تكن تتوفر على أدنى درجات التوثيق العلمي، وأما إن كانت مُرسلةً لا زمام لها ولا خطام فالموقف الصحيح تجاهها هو الردّ، وكذلك ربما تكون المعلومة صحيحة ولكن الاستدلال بها على المطلوب غير صحيح، فيجب أن يدقق الناقد في الكلام، ويتفحصه، ولا يضطرب لمجرد إيراد معلومة لا تصمد أمام النقد العلمي!

أمثلة واقعية:

١ ـ رد أحاديث معاوية والطعن فيه رضي الله عنه بسبب دعوى

أن النبي ﷺ لعنه، وهذا خبر لا يثبت، وبالتالي بطلت الدعوى والنتيجة[1].

٢ ـ الطعن في أبي هريرة رضي الله عنه بسبب اتهام عمر رضي الله عنه إياه بالسرقة. وهذا خبر لا يثبت[2].

٣ ـ التشكيك في السُّنَّة بسبب حرق عمر رضي الله عنه لصحف فيها أحاديث، وهذا الخبر يستدلون به كثيراً، وهو خبر غير صحيح[3].

٤ ـ الاستنقاص من مكانة أبي هريرة بسبب حديث «زر غبّاً تزدد حبّاً»[4] وهو لا يصح بالقصة الـمُدّعاة.

والشبهات الأربع الماضية كلها أمثلة على دعاوى استندت إلى نقول غير صحيحة، فبَطَلَت.

وهنا نوع آخر من الدعاوى، وهي الـمُستندة على نقول صحيحة، ولكن عند التدقيق في طريقة بناء الحجة من هذه النقول نجد أن البناء غير صحيح، **أمثلة على ذلك:**

١ ـ الاستدلال بقول الله: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن

---

(١) مسند البزار (٩/ ٢٨٦) (٣٨٣٩).
وللاستزادة يُنظر: كتاب «سل السنان في الذب عن معاوية بن أبي سفيان» لمؤلفه: سعد بن ضيدان السبيعي.

(٢) مصنف عبد الرزاق (١١/ ٣٢٣) (٢٠٦٥٩).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ١٨٨) (٦١٧٠).

(٤) مسند الطيالسي (٤/ ٢٨٦) (٦٢٨٥). سيأتي تفصيل الكلام فيها لاحقاً.

﴿شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٣٨] على إنكار السُّنَّة، ووجه الخطأ أن الكتاب المقصود في الآية هو اللوح المحفوظ لا القرآن، وبالتالي لم تَعُد المعلومة الصحيحة موصلة إلى النتيجة.

وأما قول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩] فسيأتي نقاش استدلالهم به عند الحديث عن الشبهات حول السُّنَّة[١].

٢ ـ الاستدلال بحديث النهي عن كتابة السُّنَّة على عدم حجيتها[٢].

فالمعلومة صحيحة عند كثير من العلماء، ولكنها لا توصل إلى النتيجة؛ لأن النهي عن الكتابة لا يستلزم نفي الحجية؛ إذ نفي حجّية الأخبار له طرق ليس منها عدم الكتابة.

وكذلك فإن من الثغرات التي يُمكن اكتشافها بالتفكير الناقد: التناقضات الموجودة في الاستدلال بالشبهة.

مثال ذلك:

نفْسُ الحديث السابقِ ذِكرُه في النهي عن كتابة ما سوى القرآن، ولكنَّ نوع الثغرة هنا مختلف عن الفقرة السابقة في

---

(١) (ص١٧٦).

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (٤٠٠٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج**» باختصار.

أن الـمُستَدِلَّ به إنما يستدل بما لا يعتبره حجة؛ وهذا تناقض.

القاعدة الثانية: سؤال المتخصصين:

من الملاحظ أن هناك تحفظاً عند شريحةٍ من المتأثرين بالشبهات الإلحادية واللادينية، من الشباب والفتيات، في سؤال أهل العلم وطلابه عمَّا يَعْرِض لهم في هذه الأبواب، وقد مر معنا أن مِن سمات الموجة التشكيكية المعاصرة في المجتمع المحلّي: (الخفاء).

وربما يكون لبعضهم مبرر في هذا التحفظ من جهة توقعهم أن يُقابَلوا بالزجر والنهر، لا بالترحيب وحُسن الاستماع، وقد يكون تخوفهم هذا له ما يُصدّقه من واقع بعض المشايخ وطلاب العلم، إلا أن هناك مبالغة في رسم صورةِ حالةٍ عامة لهذه القضية، إذ إن الساحة لا تخلو مِمّن يفتح سمعه وعقله وقلبه لهذه الأسئلة، ويُحسن التعامل معها، وهنا لا بد أن تُغرس الثقة بين الأبناء والآباء، وبين المعلمين والطلاب، وأن يفتح العلماء والدعاة وطلاب العلم قلوبهم وأبوابهم لاستقبال أسئلة الجيل وإشعارهم بالثقة والأمان مهما كان السؤال المطروح؛ لأن الأمان مفتاح التواصل، وإذا عدم الأمان وانهارت الثقة بحثوا عن المتردية والنطيحة لإجابة أسئلتهم.

ولا ننسى أننا نتحدث في هذه القاعدة عن المتخصصين ذوي المعرفة والقدرة على الإجابة لا عن هواةٍ أو كُتّابٍ لا شأن لهم في مجال هذه العلوم.

قـال الله ﷻ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النحل: ٤٣].

القاعدة الثالثة: مراجعة الجهود السابقة في الرد على نفس القضية الـمُستشكلة:

لا يكاد يمر سؤال أو استشكال متعلق بالإسلام وثوابته إلا وقد طُرِح قبل ذلك وعولج، وخاصة في بعض الأبواب الشرعية، مثل: باب القَدَر، وباب حجية السُّنَّة،، وكثيراً ما يردد الشباب أسئلة من هذا النوع؛ كسؤال: كيف نجمع بين علم الله السابق وبين تعذيب الكفار؟ وهو من أشهر الأسئلة في الأبواب العقدية، وقد عولج كثيراً من علماء المسلمين، وكذلك سؤال الحكمة من وجود الشر، والحكمة من خلق إبليس، وكذلك استشكال بعض الأحاديث، مثل حديث سحر النبي ﷺ[1]، ومثل ما يُرى من تعارض بعض روايات أحاديث المسيح الدجال، ونحو هذه الأسئلة التي تتردد في الأوساط الفكرية المعاصرة.

فمن الأمور المهمة حين يتعرض الإنسان لشبهة في باب

---

(١) صحيح البخاري (٣١٧٥)، صحيح مسلم (٢١٨٩).

شرعي أن يرجع إلى الجهود السابقة في معالجة نفس الإشكالات التي واجهته، فكثيراً ما يجد الجواب شافياً لمسألته، ويمكن سؤال المتخصصين عن أهم الكتب في الباب الـمُستَشكَل.

وهناك كتب لم تقتصر على حل الإشكالات في باب واحد، وإنما ضمت أبرز الأسئلة في أبواب كثيرة، مثل موسوعة بيان الإسلام.

القاعدة الرابعة: رَدُّ المتشابه إلى الـمُحكم:

إن قضية المحكم والمتشابه لمن الأمور المنهجية المهمة في فهم القرآن، وهي الفرقان بين الراسخين والزائغين، فقد قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ٧]، ويلخص ابنُ كثير معنى الآية ودلالتها في كلام واضح ثمين، فيقول: «يخبر تعالى أن في القرآن ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات ﴿أُخَرُ﴾ فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم؛ فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم مُحْكَمَهُ على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُنَّ

﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ أي: أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾؛ أي: تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد»[1] انتهى.

وهذا يقودنا إلى أمر في غاية الأهمية؛ ألا وهو ضرورة استعراض سائر نصوص الباب وعدم الانتقاء والاجتزاء، فقد يكون النص متشابهاً، فلا يستبين إلا بالمحكم الذي نعرفه بنصوص أخرى.

فحين يأتي نصراني فيقول: إن قرآنكم يدل على تعدد الآلهة، والدليل قول الله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]، ووجه الدلالة أنّ في هذه الآية ألفاظاً تدل على الجمع: (إنّا) (نحْن) (نَا) (واو الجماعة)، فنقول له: إن هذه الضمائر كما تدل على الجمع، فهي تدل على التعظيم أيضاً، فالملوك يتحدثون عن أنفسهم بصيغة الجمع من باب التعظيم، وإذا نظرنا إلى الأمر الـمُحكم البيّن في القرآن الكريم فهو التوحيد؛ قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: ١]، وقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾ [النساء: ١٧١]. فبطل تشغيبه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٥٣).

القاعدة الخامسة: التماسك أمام الشبهة التي لم يُعرَف جوابها:

أُصَادَفُ أحياناً ببعض السائلين الذين داخل قلوبهم الشك، وحين أسأل عن السبب يذكرون شيئاً لا يوجب الرّيب؛ وغاية ما في الأمر أنهم لم يعرفوا الجواب عمّا عَرَض لهم، وهل إيمان المسلم بهذا الضعف بحيث يهتز لأخَفّ ريح؟ ألا يوجد موقف آخر عند عدم معرفة الجواب، اسمه (البحث، السؤال، نقد المعلومة) قبل الشك مباشرة؟

إنَّ عدم العلم ليس علماً بالعدم؛ أي: أن عدم علمنا بالجواب لا يعني أنه لا يوجد جواب، وحين ندقق في بعض هذه الإشكالات التي أوجبت الريب نجد أن الكلام فيها قد قُتِل بحثاً؛ فلو أن الـمُستَشكِل قام ببحث سريع على المواقع الموثوقة في الشبكة لوجد عشرات الإجابات حاضرة أمامه.

القاعدة السادسة: دراسة سلبيات الانتقال إلى الفكر اللاديني أو ما يُسمَّى ـ زوراً ـ بالـ(قرآني) ونحوها:

إذا كان يعتقد من واجهته بعض الإشكالات تحت مظلة الإيمان أنها ستُحَلّ في نفق الإلحاد فهو مخطئ جدّاً، فالواقع أنه إذا أشكلت عليه حال إيمانه عشرة أسئلة فإنها ستتضاعف إلى ألف سؤال إن انتقل إلى اللادينية، والفرق بين الأسئلة هنا وهناك أن الإجابات تحت مظلة الإيمان قوية، بخلاف

الإجابات في الطرف الآخر ـ لو وُجدت بالأصل ـ.

مثال على ذلك: سؤال الشر؛ أو كما يحلو للبعض أن يسميه: معضلة الشر، وفي الحقيقة فإنه معضلة ولكن على الملحد لا على المؤمن؛ فإن الإيمان بالدار الآخرة وما فيها من قضاء وحساب وثواب وعقاب يجعلنا نعتقد أن كل من قُتِل ظُلماً، أو أُحرق، أو اغتصب فإنه سيأخذ حقه، وأن الظالم سينال جزاءه، ولكن: ما جواب من لا يؤمن بالدار الآخرة؟ إن سألناه: ما مصير الظلمة على مرّ التاريخ؟ وهل دُفِنَت حقوق من ظلموهم معهم تحت التراب؟

ومن الأمثلة أيضاً: سؤال: مَن أحدث الكون؟ ولماذا؟ إن الإجابة عن السؤال دون الإيمان بالخالق تبدو تائهة طائشة حائرة، ولذلك؛ تجد الملحد يتعلق بأتفه فرضية في هذا المجال ليعلق عليها الإجابة.

وعدِّد ما شئت من الأسئلة: لماذا يبدو الكون منتظِماً ومفهوماً؟ لماذا تحكمه قوانين دقيقة؟

كيف تنتج الصُّدفةُ العلوماتِ الوراثيّة الدقيقة داخل وعاء متناهٍ في الصغر (النواة)؟ وكيف تَفَعَّلت هذه المعلومات لتصبح صفات حقيقيّة في شخص حاملها.

وكذلك من يترك السنّة لأن فيها إشكالات، ويقول يكفيني نص القرآن، فأول ما سيواجهه هو نص القرآن ذاته،

الآمر بطاعة الرسول واتباعه، والمحذّر من مخالفة أمره، فسيقع هذا المُنكِر في إشكالات حقيقيّة تجاه تلك النصوص، كما أنه سيجد كثيراً من الأحكام التي أجمع المسلمون على العمل بها غير موجودة في نص القرآن، وهذا سيولد عنده تساؤلات أخرى متعددة. وفي واقع الأمر فإنه لم يتخلص من الأسئلة والإشكالات، وإنما انتقل من إشكالات صغرى إلى الإشكالات الحقيقية الكبرى.

القاعدة السابعة: عدم التعامل مع الوسواس كالتعامل مع الشبهة:

من الطبيعي أن تمر بالمؤمن وساوس وخواطر، تعكر عليه صفو إيمانه، تأتي بأمور مزعجة للقلب في حق الله سبحانه أو قضائه وقدره، أو غير ذلك من أبواب الشرع، وهذه الوساوس ليست دليلاً على ضعف الإيمان، ولا على النفاق، ولم يسلم منها الصحابة ولا العلماء والعباد، ولكنهم يستعيذون بالله منها، ومن الشيطان الرجيم، ويصرفون تفكيرهم عنها.

وإذا كان المؤمن يتعامل معها في هذا الإطار فليست مُشكلة، بل هي باب حسنات له بإذن الله، ولكن المشكلة الحقيقية أن البعض لا يعرف كيف يتعامل معها، فيستجيب لكل خاطر مُزعج يَرِد عليه، حتى يصل إلى حالة من البؤس

والهم والغم ما لا يكاد ينعم معه بشيء، والأسوأ من ذلك أنْ تصيب الإنسان ردة فعل عكسية، فينفر من الطهارة والصلاة ويتركهما، أو ينفر من الدين بالكلّيّة.

إنَّ باب الوساوس يختلف عن باب الشبهات الحقيقية التي يكون علاجها بالإجابة عنها، فتنتهي وتزول إذا كانت الإجابة مُحكَمةٌ، وأما الوساوس فإن الحل معها ليس في الجواب عنها، فإنها لا تنتهي بذلك ولو كُرر الجواب مائة مرة، وإنما حلُّها في الإعراض عنها.

ومن علامات الشبهة أنها تكون ـ في الغالب ـ ذات مصدر محدد، إما أن يكون مقطعاً مرئيّاً، أو كتاباً، أو أصدقاء، ونحو ذلك، وأما الوساوس فالأصل أنها ترد من خواطر يشعر بها الإنسان في داخله، وكثيراً ما تأتيه وقت العبادة.

وبعد هذه القواعد السابق ذكرها، قد يبقى في نفس الإنسان شيء من الشبهة يصعب التخلص منه، أو تكون الشبهة أكبر من استطاعته للجواب عنها، فالحل هنا في الدعاء والابتهال والانطراح بين يدي الله سبحانه، ليزيل الشك، ويشرح الصدر، ويجلو الحزن والغم.

قواعد حوارية وجدلية مع أصحاب الشبهات

القاعدة الأولى: (قبل الحوار): استيعاب مذهب المحاور، واستعراض موادّه المرئية والمقروءة المتوفرة:

إنّ من عوامل النجاح المهمة في جَدَل أصحاب الشبهات: المعرفة المسبقة بأقوالهم وبحقيقة مذاهبهم وأصولها وأهم أدلتهم، فهذا يعين على تحضير الرد، وعدم التفاجُؤ بقولٍ لهم يصعب الجواب عنه دون تحضير، مما قد يضعف من موقف صاحب الحق!

ولا يدرك قيمة هذه القاعدة إلا من خاض الحوارات والجدل مع الـمُشككين.

القاعدة الثانية: الاتفاق على قاعدة مشتركة في الحوار:

قد يستدل أحد الطرفين على الآخر بدليل صحيح، فيردّه الطرف الآخر لعدم اعترافه بهذا النوع من الأدلة، فيقع التنازع ويضيع الوقت، بينما لو وقع اتفاق من البداية على مصادر الأدلة التي يُنطَلَق منها في النقاش لكان ذلك أفضل،

وأقرب طريقاً، مع العلم بأن هذا الاتفاق لا يلزم في كل نقاش، وقد لا يتهيأ في بعض الأحيان، ولكنه بشكل عام مفيد ويختصر الوقت والجهد.

مثال ذلك: قد تحتج على ملحد بدلائل العقل الأولية على وجود الله كدليل السببية، فيبادرك القول بأنه لا يؤمن بغير المحسوسات، وأنه يُنكِر دلائل العقل.

القاعدة الثالثة: تحرير محل النزاع:

في بعض النقاشات يُدرك طرفا الحوار بعد مدة من البدء به أنهما متفقان غير مختلفين، وإنما أساء كل منهما فهم الطرف الآخر، وهذا يكون كثيراً في حوارات شبكات التواصل، التي تُشكِّل جوّاً من الشحن النفسي، والسرعة والتوتر، فيحسن بالمتحاورَين أن يفهم كل منهما قول الآخر، ويحددان محل النزاع، ثم ينطلقان لهدف واضح.

القاعدة الرابعة: التدقيقُ في كلام الطرف الآخر، ونقدُه، والتنبّه للإشكالات التي يتضمنها:

الذي لا ينطلق من أساس منهجي محكم سيقع في تناقضات وإشكالات، إذا أُبرِزَت له وللمتابعين، ظهر خطؤه، وضَعُفَ موقفه، ولذلك؛ فإن التدقيق في كلام المحاور، ومحاولة معرفة منطلقاته وطريقة استدلاله، تعين على

استخراج ما يقع فيه من مخالفة مبادئه قبل مبادئ غيره، وعلى كشف تناقضاته، وسوء استدلالاته.

القاعدة الخامسة: عدم الاكتفاء بالدفاع:

موقف الدفاع أضعف من موقف الهجوم، خاصة إن لم تكن إجابات المدافع عن الحق في غاية الإحكام، كما أن أصحاب الشبهات على مختلف توجهاتهم لا تخلو مذاهبهم من إشكالات كبرى، يجب أن تُبرَز للناس، وذلك عن طريق إثارة الأسئلة حولها، وطلب الإجابة من المدافعين عنها.

والذي يسلكه الملحدون واللادينيون إنما هو إثارة الإشكالات على الإسلام دون نقد لمرتكزات أفكارهم وقواعد تصوراتهم، فيظهرون أمام الجمهور مظهر القوي، ويظهر صاحب الحق بنوع من الضعف، اللَّهُمَّ إلا إن كان قد رزق من قوة الحجة والأسلوب ما أعطي أحمد ديدات رحمه الله تعالى، فهذا شيء آخر.

القاعدة السادسة: عدم التسليم بمقدمات باطلة:

تسليمنا بمقدمات باطلة يعني أن المخالف سيلزمنا بنتائج باطلة قد لا نريدها، فيجب ألَّا نُسَلِّم بها ابتداء، وهذا يقطع الطريق على صاحب الشبهة.

مثال ذلك: بعض الملاحدة قد يستدرجك في النقاش قائلاً: كل موجود فله مُوجِد؛ أليس كذلك؟ فإن قلت: بلى،

قال لك: الله موجود؛ فمن أوجده؟ والصواب في ذلك ألّا تُسلّم بالقاعدة من أساسها؛ لأنها قاعدة غير صحيحة، والصواب فيها أنّ: كل حادث فلا بد له من مُحْدِث، والله سبحانه ليس بحادث، فلا يُسْأل عنه بسؤال من أحدثه، أو من خلقه، أو من أوجده.

القاعدة السابعة: إن كنت مدعياً فالدليل، وإن كنت ناقلاً فالصحّة:

قال عضد الدين الأيجي في «آداب البحث»: «إذا قلت بكلام خبري، إن كنت ناقلاً فالصحة، أو مدعياً فالدليل»[(١)].

وهذه القاعدة تُمثل خلاصة مهمة في علم الجدل، ومعناها: أنّ من يدّعي دعوى فإنها لا تقبل إلا إن جاء بدليل عليها، وكذلك إن كان المرء ناقلاً لمعلومة عن عالم أو مفكر أو هيئة أو أي مصدر فلا بد أن يثبت صحّة النقل عن هذا المصدر.

وبغير ذلك فيبقى كلامه لا قيمة له.

وهذه القاعدة لو طُبِّقت تطبيقاً جيّداً لأحدثت مناعة قوية من الشبهات المعاصرة لدى الشباب والشابات.

وهنا ملاحظة في التفريق بين (صحة النقل) وبين

---

(١) حاشية الصبان على شرح أداب العضد ص (٦).

(العزو). **مثال ذلك**: البعض يعتمد في طعنه على الصحابة ببعض الأحداث التاريخية؛ فإنْ قلت له: أثبت ذلك، قال: هذا موجود في تاريخ الطبري، في الصفحة كذا، في الجزء كذا.

وهذا في الحقيقة ليس تصحيحاً، وإنما هو عزو فقط، فنحتاج أن نرجع إلى تاريخ الطبري؛ لنتأكد من إسناده إلى هذه القصة، هل هو صحيح أم لا، أم أنه ليس له إسناد أصلاً!؛ لأن الطبري لم يشترط الصحة في كتابه، وبالتالي، فالعزو للطبري ليس تصحيحاً للكلام وإنما إحالة إلى مصدر يخضع للدراسة.

القاعدة الثامنة: التنبّه من الاستدلال الانتقائي بالنصوص الشرعية، وضرورة استعراض سائر نصوص الباب:

وهذه القاعدة من أهم القواعد، فإن الوقوع في الاستدلال الانتقائي هو من أكثر ما يقوم به المُشككون والملحدون والمنصرون؛ كاستدلال بعضهم بقول الله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ [آل عمران: ٩٣] على صحة الدين النصراني، ويتركون الآيات الأخرى التي تبين كفر النصارى.

ومن أمثلة ذلك أيضاً: الاستدلال بقول الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] على أن الإنسان مجبور مسير لا مخير، ويتركون الآيات الأخرى التي فيها إثبات المشيئة

والإرادة للإنسان كقول الله سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ومن الأمثلة: استدلال منكري السُّنَّة بقول الله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وتركهم الآيات الأخرى التي فيها الأمر بطاعة الرسول ﷺ.

إضاءات تهم المُدافِع عن الإسلام وثوابته

أولاً: فضل الرد على الشبهات:

١ ـ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢]؛ أي: بالقرآن. قال ابن تيمية: «فالراد على أهل البدع مجاهد، حتى كان يحيى بن يحيى يقول: الذب عن السُّنَّة أفضل من الجهاد»[(١)].

٢ ـ وظيفة الأنبياء بيان الحق، وإزالة التصورات الباطلة.

٣ ـ الله سبحانه وتعالى أجاب بنفسه على الطاعنين في ذاته ودينه وشرعه ونبيّه. كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩﴾ [مريم: ٨٨، ٨٩] إلى آخر الآيات.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ۝٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ۝٣٣﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١٤).

ثانياً: من المهم أن يستحضر المرء أنه يدافع عن الإسلام لا عن آرائه. وهذا يقتضي أن يُقدم الإسلام كما هو. مع مراعاة فقه الدعوة وتقديم الأولويات.

ثالثاً: ليس الداعية مسؤولاً عن استجابة الناس إذا هو أحسن دعوته، فلا تذهب نفسه عليهم حسرات، وإنما يبذل جهده، ويعلم أنَّ مِن الناس من لا يريد الحق، كما بيَّن الله ذلك كثيراً في القرآن.

رابعاً: ليهتم الداعية بنفسه من جهة الأخلاق الفاضلة، والآداب الإسلاميّة؛ ليكون قدوة حسنة، وهذا بحد ذاته من أسباب التقليل من آثار الشبهات؛ لأن النموذج الأخلاقي العالي من الشخص المتدين يعد دعوة صامتة مؤثرة، ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

تصور إجمالي لخارطة الشبهات المثارة ضد الإسلام وثوابته في الوقت الحالي[1]

تَعُودُ الشبهات العصرية المثارة ضد الإسلام وثوابته من الملحدين واللادينيين ومنكري السُّنَّة والمشككين فيها إلى **نوعين**، تحت كل منهما قائمة أبواب من الشبهات.

النوع الأول: شبهات يُراد بها الطعن في أصل الإسلام، وتشمل أربعة أبواب:

الباب الأول: شبهات حول وجود الله سبحانه وكماله والحكمة من أفعاله.

وتتفرع إلى قسمين:

القسم الأول: شبهات حول إثبات وجود الله. ومِن أبرز ما يدخل في هذا القسم:

١ ـ سؤال: من خلق الله؟

---

(١) هذا التصور ليس شاملاً لكل الشبهات المتداولة، وإنما يتناول أكثر ما هو منتشر، كما أن التقسيم الذي ترونه هو تقسيم اجتهادي قابل للتصحيح، وقد أجبْتُ في هذا الكتاب عن (جُلّ) هذه الشبهات المذكورة في الخارطة الإجماليّة هنا.

٢ ـ الاعتراض على أدلة وجود الله كالطعن في مبدأ السببية.

٣ ـ ادعاء الاستغناء بالقوانين الكونية عن الحاجة إلى وجود الله.

٤ ـ الاستشهاد ببعض النظريات والفرضيات العلمية الحديثة؛ كنظرية التطور والأكوان المتعددة، وبعض أبواب فيزياء الكم على عدم وجود الله سبحانه.

القسم الثاني: شبهات حول كماله ـ جلَّ شأنُه ـ والحكمة من أفعاله، ومن أبرز ما يدخل تحت هذا القسم:

١ ـ لماذا خُلِقنا وأُمِرنا بالعبادة؟

٢ ـ شبهة وجود الشر في العالم.

٣ ـ شبهة حول إجابة الله الدعاء.

٤ ـ تعذيب الكفار بالنار وتخليدهم فيها.

٥ ـ الجمع بين العدل الإلٰهي وبين القضاء والقدر وكتابة أعمال عباد.

الباب الثاني: شبهات حول القرآن الكريم.

وتتفرع إلى قسمين:

القسم الأول: التشكيك في صحّة نسبته إلى الله ﷻ.

القسم الثاني: ادعاء وجود أخطاء فيه، والأخطاء

المدعاة ثلاثة أنواع: لغويّة، وعلميّة (طبيعية)، وتناقضات بين الآيات.

الباب الثالث: شبهات حول الرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

وتتفرع إلى قسمين:

القسم الأول: التشكيك في نبوته ﷺ.

القسم الثاني: الطعن في مواقف من سيرته وحياته ﷺ. ومن أشهر المواقف التي يُطعَن عليه بها:

زواجه من عائشة رضي الله عنها، وزواجه من صفية، وقضية تعدد زوجاته، وحادثة بني قريظة، وحادثة العرنيين.

الباب الرابع: شبهات حول التشريعات الإسلامية، ومن أبرز ما يدخل في ذلك:

١ ـ أحكام المرأة في الإسلام (ادعاء مظلوميتها).

٢ ـ أحكام الجهاد الإسلامي (ادعاء أنه دينُ عُنف).

٣ ـ الرقّ وعقوبة المرتد (ادعاء أنه دين يخالف الحرية).

٤ ـ رجم الزاني وقطع يد السارق (ادعاء أنه دين وحشي).

وليس المقصود إنكار بعض المسلمين لشيء مما سبق

من التشريعات، وإنما من يطعن في أصل الإسلام بسبب ذلك.

النوع الثاني: شبهات يُراد بها الطعن في ثوابت الشريعة دون أصل الإسلام، وتشمل خمسة أبواب:

الباب الأول: شبهات حول السُّنَّة النبويّة.

وتتفرع إلى أقسام:

القسم الأول: حول أصل حجيتها والاستغناء بالقرآن عنها.

القسم الثاني: حول حجية أخبار الآحاد خاصة.

القسم الثالث: حول نَقَلَتها ورواتها.

القسم الرابع: حول تاريخها وتدوينها وكتابتها.

القسم الخامس: حول علم الحديث ومناهج المحدّثين.

القسم السادس: حول أحاديث بعينها، بادعاء معارضتها للعقل أو الحس أو القرآن أو العلم الحديث أو لأحاديث أخرى.

الباب الثاني: شبهات حول منهجية فهم النص الشرعي.

الباب الثالث: شبهات حول الصحابة.

الباب الرابع: شبهات حول الإجماع.

الباب الخامس: شبهات حول الحدود الشرعيّة.